مصباح الشرق واهل الاديان

اتحفنا مصباح الشرق الاغر بمقالات بليغة الانشاء مستفيضة المباحث تتناول اصول الحضارة ودعائم العمران عزاها الى عظيم من علماء المسلمين اطلعها عليه من افق المشرق . قال في الرابعة من هذه المقالات ان قومًا من غير المسلمين خافوا من علو قوة الاسلام وارتفاع سلطانه اذا رجع اهله الى ما كان عليه سلفهم الصالح من الائتلاف والاجتماع والتمسك بعروة الدين المتين فجعل بين لهم ان الملة الاسلامية السمحاء لا تعترض احدًا في دينه ولا تعاديه في مذهبه ونحلته ولا تفرق بينه وبين المسلم في المعاملة بالعدل والاحسان وان الذين يعلمون عنها غير ذلك انما اخذوه بجهل من افواه العامة والجهلة واهل القصص من موضوعاتهم وتآويلهم وضلالاتهم واباطيلهم مما لا يدخل تحت الحصر . ولم يلق الكاتب هذا الكلام على عواهنه بل اقام عليه الادلة التاريخية قال

وكيف لا ينظر الى التاريخ الاسلامي من يرمي الاسلام بالنفرة من غير اهله ويحكم عليه بانه يأمر بعداوة من يخالفه ممن دخل تحت حكمه وهذا التاريخ امامنا يقص علينا ما كان عليه أولياء الدين وأولو الحكم فيه أيام لا قوة في الارض اعظم من قوته ولا سطوة اكبر من سطوته والسيوف مسلولة والرماح مشرعة والسهام مفوقة واليد مطلقة والجو خال لا منازع ولا مماثل . نعم يقص علينا انه قلما تخلو دولة من دول الاسلام الا ولأوليائها حفظة وأمناء وارباب مناصب وذوو زلفى واصحاب مكانة واهل ثقة وأولو كفاءة وغناء من غير المسلمين منذ الصدر الاول من الخلفاء الراشدين الى الدولة الاموية الى الدولة العباسية الى غيرها الى يومنا هذا

هذا ابو موسى الاشعري في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كان له وهو والٍ على البصرة كاتب يهودي يعتمد عليه في شؤون الولاية ويركن اليه ولا يثق بغيره فبلغ عمر عنه ما دعاه الى طلب عزله فتوقف ابو موسى عن اجابة الامر معتذرًا بانه لا يجد لديه من يقوم مقامه سواه فعاوده عمر بالامر وبقي ابو موسى على رأيه حتى كتب له عمر في ذيل كتابه « مات اليهودي والسلام » (يعني افرض انه مات فماذا يكون العمل) ولم يحتج لعزله بيهوديته

وهذا عبد الملك بن مروان سيف غرة الدولة الاسلامية وسطوة الخلافة الاموية اختص لنفسه ولدولته شاعرًا من شعراء النصرانية غياث بن غوث ابا مالك الاخطل . قال عنه ابو عبيدة انه شاعر الدولة الاموية وقدمه على الشاعرين المسلمين جرير والفرزدق . وروى علي ابن مجاهد قال قال الاخطل لعبد الملك يا امير المؤمنين زعم ابن المراغة (يعني جريرًا) انه

يبلغ مدحتك في ثلاثة ايام وقد اتممت في مدحتك : « خف القطين فراحوا منك وابتكروا » سنة فما بلغت كل ما اردتُ . فقال عبد الملك ما سمعناها يا اخطل فانشدهُ اياها فجعلتُ ارى عبد الملك يتطاول لها ثم قال ويحك يا أخطل أتريد ان اكتب الى الآفاق انك اشعر العرب. قال اكتبني بقول امير المؤمنين . وامر لهُ بحقة كانت بين يديهِ فملئت دراهم والقى عليهِ خلعاً وخرج بهِ مولى لعبد الملك على الناس يقول هذا شاعر امير المؤمنين هذا اشعر العرب . ودخل الاخطل مرة على عبد الملك بن مروان فاستنشدهُ القصيدة فقال قد يبس حلقي فمر من يسقيني فقال اسقوهُ ماء فقال شراب الحمار وهو عندنا كثير . قال فاسقوهُ لبناً قال عن اللبن فُطمتُ. قال فاسقوهُ عسلاً قال شراب المريض . قال فتريد ماذا . قال خمراً يا امير المؤمنين قال أوعهدتني اسقي الخمر لا أُمَّ لك لولا حرمتك بنا لفعلت بك وفعلت. فخرج فلقي فرّاشاً لعبد الملك فقال ويلك ان امير المؤمنين استنشدني وقد صحل صوتي فاسقني شربة خمر فسقاهُ فدخل على عبد الملك فانشدهُ

خف القطين فراحوا منك وابتكروا وازعجتهم نوى في صرفها غيَرُ

فقال عبد الملك خذ بيدهِ يا غلام فاخرجهُ ثم القى عليهِ من الخلع ما يغمرهُ وأحسن جائزتهُ وقال ان لكل قوم شاعراً وان شاعر بني أمية الاخطل . وحدّث أبو عبيدة قال قال رجل لابي عمرو يا عجباً الاخطل نصراني يهجو المسلمين فقال أبو عمرو يا لكع لقد كان الاخطل يجيء وعليهِ جبة خز وحرز خز في عنقهِ سلسلة ذهب فيها صليب ذهب تنفض لحيتهُ خمراً حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن

فهذا نصراني يجترئ على خليفة الرسول وامام المسلمين يطلب منهُ خمراً وهو صاحب الحدّ فيها فلا يقابلهُ على ذلك بأكثر من العتب لعلمهِ ان الخمر حلٌّ في دينهِ

وهذا أبو العباس السفاح رأس الدولة العباسية نزل عليهِ بالكوفة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي مناظرهُ في الخلافة من آل البيت فسألهُ السفاح وكان بهِ حفيًّا هل في نفسهِ شيء يشتهيهِ فيبلغهُ اياهُ فقال لهُ لقد بالغتَ في اكرامي واجملتَ في صلتي ولكنني ما زلت أشتهي ان يجتمع لي مرة الف الف دينار فقال ابو العباس لا يوجد يا أخي هذا المقدار في بيت مال المسلمين ولكن انظرني ريثما أتدارك لك ثم ارسل السفاح من فورهِ الى رجل تاجر يهودي فاقترض منهُ هذا المال الجسيم . ومن هذه القصة يتبين لك جملة امور تنبئك عما كان عليهِ غير اهل الاسلام في صولة حكومتهِ من جمال الحال . منها اطلاق الحرية لهم في السعي في طرق التكسب والاكتساب حتى يصلوا في اليسار الى ان يكونوا أغنى من بيت مال المسلمين

فيقترض منهم . ومنها أمنهم وخلوهم من المخاوف فلم يكن يجري في حسبانهم ان أحداً من اهل هذا الدين الذين عرفوا حقيقتهُ يتعدى عليهم في ثروتهم بمكروه فاظهروها واشتهروا بها . ومنها عدم استنكاف أمير المؤمنين وخليفة الرسول وابن عمهِ من ان يلجأ الى واحد من رعيتهِ لا يدين بدين الاسلام . ومنها استحكام العدل والامان في النفوس والدولة العباسية فاشئة والفتن قائمة ومظنة السلب والنهب موجودة

وهذا المأمون لما جاء الى مصر ووصل في طريقهِ الى قرية من قرى القليوبية قابلتهُ امرأة قبطية وسألتهُ ان ينزل عندها ضيفاً يستريح برهة من سفرهِ فلبّى دعوتها فاستوقف الجيش ونزل فأكل وشرب عندها ولما همّ بالانصراف قدمت اليهِ عشرة اطباق في كل طبق الف دينار وقالت لهُ يا امير المؤمنين ان من عادة الرعية عندنا ان يقدموا لقدمة بين يدي ملوكهم علامة الشكر لهم فأسألك ان تقبل هذه الدنانير وهي من ضرب هذه السنة خاصة لتعلم مقدار ما ترتع فيهِ رعيتك من العدل والامان وتيسير الاحوال وكيف ان امرأة ضعيفة من بينهم لا سند ولا معين لها من الرجال تصل في ظل عدلك الى هذه الدرجة من الثروة . وفي هذه القصة جملة امور ايضاً منها تنازل هذا الخليفة العظيم والامام الكبير الى اجابة الدعوة من امرأة في قرية وتناولهُ من طعامها وشرابها واستيقافهُ الجيش عن المسير من اجلها . ومنها بيان ما كانت عليهِ الرعية من المسلمين وغيرهم من عدل الخلفاء وعمّال ولاياتهم حتى يملك مثل هذه المرأة من المال قدراً يعلمهُ من تأمل في أصل ثروة يهدى منها عشرة آلاف دينار من ضرب تلك السنة خاصة . ومنها اعتراف غير المسلمين لولي امرهم برفاهة احوالهم تحت حكمهِ واظهار علامة الشكر لهُ على ذلك بتقديم شيء من ثمرة ما يتمتعون بهِ من العدل والامن

وهؤلاء الخلفاء من العباسيين وغيرهم من ملوك الاسلام قد اتخذوا خاصة اطبائهم واصحاب اسرارهم وامناء خزائنهم من غير اهل الملة الاسلامية منهم بختيشوع طبيب هرون الرشيد وابنهُ جبريل من بعدهِ ومنهم ابن التلميذ الملقب بأمين الدولة طبيب المكتفي واحد مشاهير العلماء في عصرهِ والذي يقول عنهُ العماد الكاتب انهُ كان سلطان الحكماء ومقصد العالم في علم الطب بعيد الهمم عالي الهمة شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم . ومنهم ثابت بن قرة كان من اعيان عصرهِ في الفضائل والعلوم واتصل بمحمد بن موسى العالم الرياضي الشهير فأوصلهُ الى الخليفة المعتصم بالله العباسي فنال حظوة عندهُ وادخلهُ في جملة المنجمين ودرج ابنهُ وحفيدهُ من بعدهِ على درجتهِ عند الخلفاء . ومنهم ابو زيد حنين بن اسحق الطبيب العبادي المشهور كان من اطباء الخليفة المأمون وكان معتمداً عندهُ في تعريب الكتب العلمية

اليونانية . ومنهم ولدهُ اسحق بن حنين خدم من الخلفاء والرؤساء من خدمهُ ابوهُ ومنهم ثم انقطع الى القاسم وزير الامام المعتمد بالله واختص بهِ حتى كان الوزير يطلعهُ على اسرارهِ

ومنهم ابو الفرج يعقوب بن كلس امين كافور الاخشيدي وموضع سرهِ ووزير العزيز العبيدي صاحب مصر والمغرب بلغ من المنزلة عند كافور انهُ كان جليسهُ الدائم في ديوانهِ الخاص وكان الامراء والاشراف يجلونهُ ويعظمونهُ ثم ترقّى بهِ الامر عندهُ فامر سائر الدواوين بان لا يمضى دينار ولا درهم الاَّ بتوقيع ابي الفرج فوقع في كل شيء وبلغ من المنزلة عند العزيز في آخر عمرهِ أنهُ لما اعتلَّ علة الوفاة ركب اليهِ العزيز عائدًا وقال لهُ وددت انك تباع فابتاعك بملكي او تفدى فافديك بولدي فهل من حاجة توصي بها يا يعقوب فبكى وقبَّل يدهُ وقال أما فيما مضى فأنت أرعى لحقي من ان استرعيك اياهُ وانما فيما بقي فانت أرأف على من أخلفهُ من ان اوصيك بهِ ولكني انصح لك فيما يتعلق بدولتك « سالم الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تبقِ على مفرج بن دغفل بن جراح ان عرضت لك فيهِ فرصة

ولا زال الجمع الدهم والعدد الجم من فضلاء النصارى واليهود والصابئين شعرائهم وادبائهم وكتَّابهم الى المغنين منهم يتقلبون على بساط النعمة ويتنقلون في مراتب السعادة ويصعدون في مراقي الاقبال تحت كرسي الخلافة النبوية وعرش الامامة المحمدية يفدونهُ بالارواح لا يفضلون عليهِ سواهُ ولا يبغون عنهُ بديلاً . ولو اردنا ان نسير على هذا السرد في ذكرهم لملانا الكتب واستغرقنا الزمن ولكننا نختم هذه الشواهد الوجيزة بواحد هو فصل الخطاب وختم المقال في هذا الباب

ذلك ان المأمون لما اراد ان يدون العلوم ويجمعها في دولتهِ جمع في بغداد ثلاثمائة عالم من كل فن من الفنون وعلم من العلوم من كل جنس ودين فألف منهم اكبر ديوان للعلم هو اشبه عند اهل هذا الزمان باكاديمي العلوم . ثم اذن بينهم بالحظر عليهم في اجتماعهم مسلمهم وغير مسلمهم ان يستشهدوا بآي القرآن ولا بالانجيل ولا بالتوراة وامر ان لا يتعرضوا في مباحثهم الى ما يمس بالاديان ويفضي الى التجادل والتشاحن والتباغض والتنافر

هذا حال الدولة الاسلامية في معاملتها لرعيتها ممن يدين منها بغير دينها اذ كانت آخذة بقول الكتاب عاملة باحكام الشريعة على حقيقتها نابذة ما يدخلهُ الضالون المضلون اعداء الدين في الدين لا تعصب يعيبها ولا جنف يشينها بل هو العدل والانصاف والفضل والكرم والسماحة والسماحة . فاذا نحن رجعنا البصر كرة الى الممالك النصرانية قديمها وحديثها قويها وضعيفها وجدنا الفرق عظيمًا والبون بعيدًا في معاملاتها لغير اهل دينها وفي معاملة اهلها بعضهم

لبعض في تفرق مذاهبهم واختلاف طوائفهم فاذا ذهبنا الى تاريخ القرون الوسطى انقلب البصر خاسئاً وهو حسير من لون الدماء التي تسيل من اقطاره في وقائع « التفتيش الديني » في اسبانيا ومذابح « سان بارتلمي » في فرنسا . واذا عدنا الى تاريخ هذا العصر الحديث وجدناهُ تكاد تتفجر منهُ امثال تلك الوقائع من جمعيات تتألف وتستعد للوقيعة بتلك البقية الباقية من بني اسرائيل على اعين الحكومات التي تصدعنا بالفاظ الحرية والمساواة والاخاء وفصل الدين عن السياسة. هذه البقية بقية بني اسرائيل اذا قسنا ما يقع عليها الآن من انواع الهوان في كثير من الممالك النصرانية بما عاملها ويعاملها به المسلمون من الرأفة والعدل وصيانة الحقوق وحفظ المصالح تمثل لنا التعصب باشنع صوره وتجلّى لنا الشائع في اجمل اشكاله . وهذه مكرمة عبد الله ابن الاحمر آخر ملوك الاندلس مع اليهود حين سلّم غرناطة الى فرديناند ملك اسبانيا اسطع الشواهد على ذلك . عاهدهُ عهد التسليم واشترط ان يكون لليهود ما للمسلمين فيهِ من المصالح والمنافع . واي فرق اعظم بين اهل دين يشركون في حكومتهِ غيرهم وبين اهل دين آخر يحكمون الملايين والملايين من اهل آسيا وافريقية مدة السنين والسنين فلا تسمع ان واحداً من اهل الهند اشترك في حكومة لوندره او ناب عن بلادهِ في مجلس نوابها او ان واحداً من اهل الجزائر اتصل بحكومة باريس او ناب في مجلس نوابها

لا جرم ان من يقف على حقيقة الدين الاسلامي من غير اهلهِ لا يسعهُ الاَّ ان يرتاح صدرهُ ويطمئن خاطرهُ من ارتفاع شأنهِ وانتشار حكمهِ ورجوع اهلهِ الى العمل بهِ هذا ان خلوا هم ايضاً عن الاغراض الكامنة والاهواء الباطنة

انتهت رسالة مصباح الشرق وكل ما فيها من الامثلة والشواهد منقول من تواريخ العرب وقد يكون في بعضهِ مبالغة كثيرة كما في قصة المرأة القبطية ولكن ايرادهُ في التواريخ الموثوق بها والكتب التي تداولها ايدي الناس يدلُّ على تصديق الكتّاب السامح لهُ واقرارهم على صحتهِ وحسبانهم اياهُ مما يحسن ذكرهُ ونشرهُ لا مما يخالف ما يعتقدونهُ ويحسن الاغضاء عنهُ . ولكن المطّلع على تواريخ الممالك الغربية ولا سيما تواريخ هذا القطر يرى فيها ايضاً كثيراً مما يسوء ذكرهُ ويضطرُّ الباحث المنصف الى القول بان نصيب الدين من اعمال الناس قليل جداً وانهم يعملون في الغالب على مقتضى طبعهم فالكريم كريم وشيماً كان كسقراط وفضلاء العرب قبل الاسلام او كتابياً كالفضلاء من اليهود والنصارى والمسلمين والاَّ فاذا آخذنا كل دين باعمال اهلهِ اضطررنا الى جمع النقيضين . وهذا لا ينفي ما هو مقرر من ان الاديان تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وان المؤتمرين باوامرها اقرب الى العدل من غيرهم